التربية بالقرآن.. والعودة إلى المنهج الأصيل

٢٥/ ٤/ ١٤٣٦هـ

الجزء الأول من عنوان هذه المقالة هو عنوان الملتقى الذي نظّمته الجمعيةُ العلميةُ السعوديةُ للقرآن وعلومه (تِبيان) بعنوان: (التربية بالقرآن... نماذج وتجارب) نهاية الأسبوع الماضي (٢٢-٢٣/ ٤ / ١٤٣٦هـ) في رحاب جامعة أم القرى[١].

والتميز الذي لمسه الحضورُ والمشاركون في هذا الملتقى، هو: الانتقالُ بكثيرٍ من بحوثه وتجاربه من التنظير إلى التطبيق، حيث استمع الحضورُ إلى نماذج عملية تمّ تطبيقُها في سبيل تحقيق هذا الهدف (التربية بالقرآن).

ومع يقين كل باحثٍ بأهمية التأصيل والتنظير في هذا الموضوع المهم (التربية بالقرآن)؛ إلا أنه قد حان الوقتُ للإفادة من التجارب القائمة في الساحة، سواء هنا في المملكة أم في غيرها من بلاد الإسلام؛ لأن الغاية من البحوث المؤصِّلة لهذا الموضوع هي: الانتقال بها إلى الميدان؛ ليفيد منها المربّون، والمعلّمون والمعلمات، والجهاتُ الإدارية التي تُشرِف على حلقات ودُوْر تحفيظ القرآن الكريم.

---

(١) يمكن تحميل بحوث هذا الملتقى من هنا:
http://www.alquran.org.sa/main/articles.aspx?article_no=709&search=1.

لقد بعث هذا الملتقى الأملَ، وجدّد الفألَ في النفوس بأن في الأمة خيرًا كثيرًا، وأن هناك رجالًا ونساءً يعملون، ولا يَكلّون في سبيل الأخذ بأيدي الأجيال إلى رياض القرآن، وتربيتهم بهديه، وصناعتهم على قِيَمِهِ وأخلاقه، في منظومةٍ من البرامج والمناهج المبنيّة على أُســسٍ علمية وإدارية جيدة.

ولقــد كنتُ، وأنا أســتمع إلى بعض تلك التجارب والنماذج أشــعر بالغبطــة والسرور، وأنا أرى العودة إلى المنهج الأصيل في التربية القرآنية (الإيمان قبل القرآن)، الذي عبّر عنه جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -ونحن فتيــان حزاورة[1]- فتعلَّمنا الإيمانَ قبل أن نتعلــم القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن؛ فازددنا به إيمانًا[2]، وورد نحوَه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

والمراد بهذا المبــدأ -الإيمان قبــل القرآن- : غرسُ معــاني الإيمان، وتعظيمُ أمر الله ورســوله في القلوب، ومحبّتهــما، وتقديمُ ذلك كلّه على النفس والوالد والولد والنــاس أجمعين، وجعْلِ ذلك من شروط صحة الإيمان، في تنويعٍ عجيبٍ في الوسائل التي تُحقِّق هذا الأصلَ المهمَّ.

ومما يوضح شيئًا من تفاصيل هذا المنهج النبوي، الذي تلقّاه الصحبُ الكرام عــن المربي الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثــم نقلوه إلى التابعــين؛ ما رواه أبوعبدالرحمن السُلَمَيّ، فقال: إنا أخذنا هذا القرآنَ عن قومٍ أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلّموا عشرَ آيات لم يجاوزوهن إلى العَشر الأُخَر حتى يَعلَموا ما

(١) حزاورة: جمع حــزْوَر، وحزوّر: هو الذي قارب البلوغ، والتــاء لتأنيث الجمع، ينظر: (النهاية) (١/ ٣٨٠).

(٢) رواه ابن ماجه (رقم٦١)، وسنده حسن.

فيهن، فكنا نتعلّم القرآنَ والعملَ به، وإنه سيرث القرآنَ بعدنا قومٌ لَيَشْرَبُونه شرب الماء، لا يجاوز تراقِيَهم! بل لا يجاوزها هنا، ووضع يده على الحلْق[1].

وهـــذه الآثار -أثر جندب وابن عمـــر وأبي عبدالرحمن- تُبين المنهجَ النبويَّ الذي ســـار عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غرس هـــذا المبدأ، وكيف أخرج ذلك الجيـــلَ العظيمَ -جيـــل الصحابة- مع أن أكثرهـــم لم يكن حافظًا للقرآن كله، بل الحفّاظ فيهـــم قليل! لأنهم تلقّوا حقائقَ القرآن، وفهِموا مقاصدَه ومعانيه؛ فسرى هذا في عباداتهم، وسلوكهم، ومعاملاتهم.

ومَن تأمل في قصة إراقة الخمر، وفي قصة أبي طلحة حين نـــزل قولُه تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢] وتصدُّقِه ببستانه، وقصةِ ثابت بن قيس حين نـزل صدرُ سورة الحجرات، وقصةِ كعب بن مالك حين أُمِرَ بمفارقة زوجته، فقال: أُطلِّقها أم أُلحقها بأهلها؟ وقصةِ نساء الأنصار حين نـزلت آيةُ الحجاب، وغيرها كثير؛ من تأمل ذلك كلَّه علم أنها شواهد على أثر هذه التربية النبوية العظيمة.

لذا، فإنني أتمنـــى أن يعود تطبيقُ هذا المنهـــج -الإيمان قبل القرآن- في حلقات مســـاجدنا، ولئن كان يَصعب تحويلُ الحلْقات كلها إلى هذا، فلا أقلّ من تأســـيس حلقةٍ في كلّ مجمّع تتبنى ذلك، وهذا يســـبقه تهيئةُ المدرّسين الذين يقومون على هذه الحِلَق؛ إذْ لا بد أن يكونوا ممن يتحلَّون بخلُق القرآن، وعلى قـــدْرٍ جيدٍ من التحصيل الشرعي، خاصةً في القرآن وعلومه، وأن يكونوا ممن عُرفوا بذلك، فالتلقّي هنا ليس مجرد تلقين، بل نقلٌ للمعرفة والسلوك.

---

(١) رواه ابن سعد في (الطبقات) (٦/ ١٧٢) وسنده جيد.

إن كثيرًا من طــلاب الحلقات لا يتهيأ لهم الاســتمرار حتى يحفظوا -وهذا شيء طبيعي- فلتبْقَ معهــم التربيةُ الإيمانيةُ، والهداياتُ القرآنيةُ، وإن لم يُكمِلوا حفظ القرآن؛ إذْ المقصد الأكبر إصلاحُ القلب والسلوك ما أمكن، وإن لم يتيسر الحفظ؛ فالحفظ فضلٌ يؤتيه الله من يشاء، وعلى مدار القرون لم يكن الحفّاظ إلا عددًا قليلًا في الناس.